النقد

رد على نقد

٤ - كتاب تاريخ الاسلام السياسى

للدكتور حسن ابراهيم حسن

تتمـــــة

ومن الغرابة أيضاً أن نجد الناقد يأخذ علينا أننا كثيراً ما نستمد ونقتبس من كتاب «تاريخ العرب» لسديو، و «موجز تاريخ العرب» للسيد أمير على، و «الحضارة العربية» لجوستاف لى بون، و «أتباع محمد» لواشنجتن أيرفنج، لأنها فى نظره أصبحت قديمة قاصرة من حيث المستوى العلمى فى الوقت الذى نراه فيه يشيد بمدح المستشرق مرجليوث، ويستدل به فى نفى الكتاب عن ابن قتيبة. وقد يدعوه الاعجاب بمرجليوث فيدافع عنه ضمناً بأننا لم نحسن الرد عليه حين قال: «فى صدد الرجلين اللذين أرسلهما عامل كسرى على اليمن ليأتياه بالرسول، فلما قدم الرجلان على الرسول (صلى الله عليه وسلم) أخبرهما بأن كسرى قتل وأن ابنه هو الذى قتله»، أن الرسول كان له من يأتيه بالأخبار!! أما والله لولا أن الناقد مسلم كما نعتقد!! لظننا أنه يردد صدى هذا المستشرق الذى ينكر كل معجزة للرسول ويذهب فى التأويل بعيداً بحجة المعقول وغير المعقول، ولو كان حصوله أوضح من الشمس فى وضح النهار

انظر الى هذا الناقد يجمل من عيوب كتابنا أننا لم نبطل هذه الرواية الدالة على المعجزة أو نتأولها على الرغم من تعرض كتب السنة الصحيحة لها وإثباتها، وعلى الرغم من أنه يعلم كيف يتغلب التعصب الدينى أحياناً على روح العلم والبحث عند بعض المستشرقين، فينظرون إلى ما ورد عن الرسول من خلال مذاهبهم الدينية لا أبحاثهم التاريخية، ولسنا فى حاجة لايراد الأمثلة والشواهد على ذلك، فهى فى متناول كثير من الناس

ولشد ما أعجب من حضرة الناقد حين يأبى أن يكيل لنا المدح جزافاً، ولكنه لا يأبى أن يكيل الذم كذلك ويخطئنا تخطئة لا حق له فيها، من ذلك أننا لما روينا قول بعض المؤرخين إن بعض الخوارج كانت تصدر منهم أمور متناقضة تدل على أنهم يخبطون خبط عشواء، كلومهم آكل الرطبة بدون دفع ثمنها، واسترضائهم ذمياً بدفع ثمن خنزير له قتلوه، وقتلهم عبد الله ابن خباب وزوجه وبعض النساء — علقنا على ذلك فقلنا إن هذا ليس من التناقض فى شىء، وإنما هو أقرب إلى أن يكون غلواً فى تطبيق مذهبهم، وحجتنا فى هذا أن الخوارج يرون وجوب قتل المسلم الذى لا يدين برأيهم لأنهم يعتبرونه مرتداً؛ وحروبهم المتعددة مع على بن أبى طالب ومع الأمويين، بل وأشعارهم وأراجيزهم تنطق بذلك. أما الذى فلا سلطان لمذهبهم عليه، كما أنهم كانوا لا يستحلون أكل المغصوب أيا كان صاحبه، ولو أنهم يستحلون قتل النفس التى حرم الله قتلها. فمن أين يأتى التناقض يا ترى؟ هذا لو أرشدنا الناقد إلى وجه آخر فى هذه المسألة خلاف ما ذهبنا إليه! فليس إلقاء الكلام على عواهنه مما تُخدم به «المادة الناشئة فى معاهدنا العلمية أو يحفظ لمصر سمعتها فى الأقطار الشرقية!»

لا يقل خطأ الناقد فى هذا عن خطئه فى دعواه، بأننا مع استشهادنا ومباهاتنا بتلمذتنا لبعض المستشرقين ننسى ما ننقله عنهم أحياناً وننسبه لنفسنا، وأننا جرينا على ذلك فى الفصل الذى عقدناه لمكتبة الإسكندرية، ويكفى فى الرد على هذه الدعوى الجريئة أن يرجع القارىء إلى كتابنا عمرو بن العاص فيجد أننا ذكرنا هناك رأى «بطلر» مفصلاً فى إحراق هذه

المكتبة ، وعلّقنا عليه بما يستحق من تقدير . فاذا أحلنا القارىء إلى كتابنا المذكور ، فذلك لأنه يعتبر خاصاً بهذه المواضيع مدوناً فيه آراء بعض العلماء منسوبة اليهم عن هذه الحادثة العظيمة الشأن

ولقد كنا ربما يبعض الأقلام أن تنزلق عن منهج النقد الخالص إلى إلقاء التهم والظنون بين الناس وغرس ما لا يستحسن غرسه بين التلميذ وأستاذه أو بين المؤرخ والمؤرخ . وحاشا لله أن ندعي ما ليس لنا أو أن نجهل فضل من جلسنا أمامه مجلس التلميذ ، فاذا رغبت بعض الأقلام فى أن تتهمنا بالتدليس مع بعض الأساتذة المستشرقين ، أو بالعقوق مع أستاذنا المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك الذى نقدره ونجله ، فانما تحاول عبثاً هذه الأقلام وتمكن من نفسها وتدل على مصرعها . إن المتصلين بنا يعرفون أن ليس من خلقنا إنكار الجميل . ونحمد الله أنه فى الوقت الذى كان الناقد يفكر فى هذه الوقيعة بيننا وبين استاذنا المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك كان أحد أفراد أسرته يتكرم بزيارتنا ويعرض علينا أن نشرف على نشر ما خلفه المرحوم من الكتب التى لم تنشر فى حياته . ويا للعجب إذا كانت الجرأة والضمير يطوحان ببعض الناس إلى إثارة الضغينة بين الحى والميت ، فكم تبلغ عفتها فى أن توقع بين الحى والحى ! ! ألا فليرح الناقد باله من هذه الناحية فلن يجد غرسه أرضاً خصبة ولا يشفى به غيظاً

* * *

كيف يمكن أن يوفق القارىء بين قول الناقد إن هذا الكتاب عرض لنواح شتى من الحياة الاسلامية القديمة : عرض لنواحى الدين ، والسياسة ، والاجتماع ، والعقل ، والأدب ، وبين قوله — عفا الله عنه — « إن المؤلف غير موفور الثقافة الاسلامية وقد أداه تفريطه فى جانب الثقافة الاسلامية إلى الافراط فى الأخذ عن المصادر الأجنبية » ، ومن يدرى ؟ فلعل هذا تقريظ قامت عيناه فأبصر

جرت العادة أن يسمى الكتاب بأبرز نواحى موضوعاته ، واللبيب يدرك بداهة أن فتح عمرو بن العاص مصر مما ينطبق عليه انطباقاً كلياً لفظ السياسة ومعنى السياسة ، ويدرك كذلك أنه كان لعقائد الفرق الاسلامية ومذاهبها المكان الأول فى إحلال دول مكان دول ، وتقويض عروش وتدعيم عروش . فهذه الدولة العباسية استطالت أعالها بسبب انتشار العقائد الشيعية وتغلبها ؛ وتلك دولة الفاطميين خلقتها المذاهب الدينية أيضاً . ودع عنك القرامطة ، والباطنية ، والخوارج وغيرهم ؛ فتلك أمور يطول شرحها . فأنت ترى مبلغ تأثير تلك العقائد فى الاتجاهات السياسية ركوداً وهبوباً ، وماذا تكون السياسة إذا لم تكن هى خلق منشآت جديدة ، وتنظيم أمور الناس وفق مشارب ملوكها وأمرائها ، وطبع المجتمع على غرار ما يراه الحاكمون سواء بسواء ؟ لكن ناقدنا يأتى مع هذا معتقداً بأن عنوان الكتاب قاصر لا يجمع مثل هذه البحوث ، فما كانت تصح نسبتها اليه ولا وضعها فيه ، ويتعطف فيرشدنا إلى أنه ينبغى — إذا لم تكن مندوحة عن ذكر هذه الأبحاث — أن نصوغ عنوان كتابنا بما يدل على الشمول ، ويزداد تعطفاً فيذكرنا بكتاب « موجز تاريخ العرب » للسيد أمير على الهندى الذى نعرفه حق المعرفة ! ولقد كان بودنا أن نتبع نصحه — ولو مرة واحدة — تشجيعاً للنقد ، وثقة بنية صاحبه ، لولا أنه سها عن أننا بسبيل وضع جملة أجزاء لكل جزء عصر خاص به . فاذا اقتدينا بمن ذكره لحق علينا قوله ليس لدينا غرض واحد محدود نرمى اليه ونسير على هديه ، ولعله تذكر أخيراً أن هناك خمسة أجزاء باقية ستصدر بعد هذا الجزء — إن شاء الله — فلم يشأ إلا أن يزودنا — كعادته — بنصحه ، وبأن نكون فى وضعها أشد تحفظاً وأكثر تثبتاً

على أننا نضحك أشد الضحك حيث يرشدنا الناقد إلى الاقتداء بوضع السيد أمير على لاسم كتابه « موجز تاريخ العرب » ذلك الكتاب الذى وصف مؤلفه بأنه «متوسط المكانة التاريخية» كما وصف أيضاً المؤرخ المشهور السير وليام ميور الذى خلف لنا كتابه فى سيرة النبى وكتابه الآخر فى الخلافة بأنهما قديمان . ونحب — قبل أن نترك هذه النقطة — أن نهمس فى أذن الناقد بأن المؤلف الأول السيد أمير على ، الذى لم يرق فى نظره أن أخذنا عنه بعض ما أخذنا ، يقول عنه الأستاذ ادوارد براون فى كتابه تاريخ الفرس الأدبى (E. G. Browne, Literary History of Persia, 4 vols. I. P. 188) فى سياق كلامه على مبدأ ظهور الاسلام ما نصه :

« هذه المسائل قد ناقشها فى مؤلفاتهم بكفاءة ولباقة كل من سيل ، وسپرنجر ، وميور ، وكرهل ، ونلدكه ، وبوزول سميث ، والسيد أمير على

والسيد أمير على هو ذلك المسلم المصرى الواسع الفكر والاطلاع ، جمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، وهو حقيق بأن يطلع على كتابه كل من يرغب فى تفهم ذلك النفوذ القوى الذى لا يزال يتمتع به الاسلام ونبيه ، حتى فى نفوس هؤلاء الذين أشربوا روح الثقافة الأوربية »

ونعود إلى بعض ما أورده حضرة الناقد — أستغفر الله ! بل إلى الارشاد إلى ما نقده — ليعدل فى المستقبل عن تكلف ما لا يحسن — على رأيه فينا — وليستوعب ما يقرأ ويصرف نشاطه فى مدارسها ، فما يكون الانسان كاتباً إلا بعد أن يكون قارئاً ، وإنها لكبيرة أن يعمد واحد إلى كيل التهم والتشكيك غير مراع للتاريخ حرمته ، ولا للقارئ عقليته ، ولا للحق كلمته

يقول : « إن تشريع القبلة وحكمته يظفران فى كتابنا بثلاث صفحات ، فى حين أن غزوة بدر التى تعتبر بحق أهم وقائع الاسلام ، ومن وقائع التاريخ الفاصلة لا تكاد تظفر بصفحة واحدة ؛ وأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك تخص بصفحتين ، فى حين أن الأحداث الجسام التى وقعت زمن الخليفة يزيد ابن الوليد بن عبد الملك تركز وتضغط فى أسطر قلائل »

ويحسبنا أن يرجع القارئ إلى كتابنا ليرى كيف تفتل بعض الأفلام من الهواء حبالاً ، وتخلق من الواقع محالاً . إن غزوة بدر ومقدماتها ظفرا وحدها من صفحات الكتاب بنحو الثلاث عشرة صفحة (صفحة ١٣٦ — ١٤٨) ، وإلا فهل كان الناقد يظن الكلام فى الجهاد وأسبابه ، والغنائم وشرعيتها ، وهل الدعاية إلى الدين كانت من طريق السلام أو الحسام — كل هذا يظنه بمنأى عن غزوة بدر ولا يتعلق بها ، وأننا لم نفصل الكلام على هذه المواضيع بمناسبة تخالف تلك الغزوة الخالدة ؟ وهل كان يريد أن نستبدل هذه الأحداث الهامة بذكر ما قيل فى رثاء قتلى المشركين ، وما تقدمت به قتيلة تعاتب الرسول لقتل أخيها النضر ، وما وقع فى قتل أبى جهل مما تختص به كتب السير ؟ أما إن الاحداث الجسام التى وقعت زمن يزيد ابن الوليد ركزت وضغطت فى أسطر قلائل فدعوى غريبة ، يكفى لوأدها صفحات الكتاب من ٥٢٣ إلى ٥٥٠ ، وفيها أسباب سقوط الدولة الأموية ، والتعرض بالتفصيل لهذه الأحداث الجسام التى وقعت أيام يزيد وغيره

إنما اللوم على من يحسبها ظلمة من بعد ما يبصرها

* * *

فى الأمثال « لا يشكر الله من لا يشكر المحسن من الناس » وإذا كنا فى كلمتنا السابقة أخذنا على بعض المستشرقين أنهم أحياناً ينظرون إلى تاريخ الاسلام من خلال مذاهبهم الدينية ، لا أبحاثهم التاريخية ، فاننا لا نكتمهم حق الشكر على أنهم عاونوا فى رفع الحجب التى أسدلتها العصور المظلمة على تاريخنا ، وسلكوه فى سلسلة تصل أوله بآخره ، وتمد القابض عليها السائر حذاءها بما يمكنه من إدراك ما فيه من قوة وضعف واعتلاء وابتلاء . هذا ما كتبه فون كريمر ، وبروان ، وكرهل ، والسير توماس أرنولد ، وأميل درمنجم وغيرهم ، يدل على توفيق كبير فى استخراج الوقائع والعبر التاريخية واضحة جلية بعد أن اختلطت أحداثها وتعددت نظمها وآراؤها ، وبعد أن كان التاريخ سيرا يتفكه بها الخالون ويحتقرها العالمون ، صار بفضل تلك الأبحاث العلمية الحديثة فناً كريماً تقرن فيه الموقعة بالموعظة ، وتلحق فيه البينات والشواهد آثار رجالاته وبيئاته ، حتى غدت منابعه عذبة للواردين وطرقه معبدة للمدلجين . فليس من الانصاف ما ذهب اليه الناقد من أن التاريخ الاسلامى لم ينهض بعد فى الشرق نهضته المستقلة المنشودة ، وأنه لا يزال قصصاً يقص وسيراً ساذجة تتلى . أجل ! كان من حسن الحظ — أو من سوئه — أن الناقد بعد أن نعى علينا ما نعى ، وبعد أن ملأ مقالاته الأربع بما يسترهب بعض الألباب حتى ظنته إمام هذه الصناعة ، ذهب بعيدا جدا فى الاعتداد والارشاد ، وعمم بعد تخصيص ، وألقاها كلمة داوية بأن التاريخ الاسلامى فى الشرق لم ينهض نهضته ولما يجد من يقيل عثرته ، وأن روح الجماعات وأثر البيئة والتقاليد وعمل المبادئ والعقائد ، والقوى الاجتماعية والاقتصادية لا تزال فى العربية أسرارا لم ترفع عنها الحجب . فهذا الكاتب يرى أن كل ما ألف أو درس فى التاريخ الاسلامى من

أصول وفروع وبيئات وتقاليد لغو وباطل ، سواء أكان الدارسون شرقيين أو مستشرقين

كان الظن بمن ينقد شيئاً أن يرينا مثلا أعلى لما ينبغي أن يكون عليه طريق البحث ويدلنا عما صنع هو للاحتذاء والأسوة ، فالنفس دائماً مولعة بأن تتبع ذا الفعال ، وقلما تفيدها الأقوال « ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتعظيم من معلم الناس ومؤدبهم » . ويظهر أن الناقد استشعر هذا الاشكال الجديد ، فهو يحاول النجاة بأن الذي يحول دون نمو الروح التاريخي الصحيح في الشرق هو ما يعترض الباحث من وعورة المسلك وبعد الشقة وصعوبة المنال . مرحى مرحى ! كأنه يعتذر عن عدم إخراجه ولو مؤلفا واحدا مما ذكر ، ويتهم كل المؤرخين بأن التاريخ في كتبهم لا يزال قصصاً يقص وسيراً ساذجة تتلى ، ويكتب أربع مقالات ينقدنا فيها نقداً لاذعاً ، ويدعونا إلى الأخذ من هذا وترك الأخذ من ذاك . وما عهدنا واعظا حكيما يهدي إلى طرق لم يسلكها ، ويبكت الناس بواجبات لم يتذوقها ، أو يثقل عاتق الناس بما عجز عن حمله ، أو يسهو عن أن الحكم عن الشيء فرع عن تصوره . عفا الله عن ابن المقفع ، فقد ذكر في ترجمة « كليلة ودمنة » أمثالا صالحة لمن يغشى حلبة السباق وهو مقعد ، أو يتولى سدة الوعظ وهو محتاج إلى الرشد

وبعد فما كان أغنى قراء « الرسالة » عن هذا كله ، وما كان أحق النقاد ألا يشرعوا قلمهم إلا لله والمصلحة العامة ، لا تغزو بهم نازية من خوف أو طمع . ولكن هكذا قدر (ولو شاء ربك ما فعلوه)

ولقد رأى حضرات القراء أن هذه الزوبعة التي هول في أمرها وأطال في ذكرها لم تكن بذات خطر تمد له في تجريحه مداً . ولله الحمد قد آن لنا بعد أن حصحص الحق أن نمسك القلم شاكرين « للرسالة » والقراء ، معتذرين — بدورنا — عما عسى أن يكون بدر به القلم — فالبادئ أظلم . ومن لا يغار على الحق وكرامته يتهم في رجولته . (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)

انتهى

حسن ابراهيم حسن

وزارة الأوقاف
اعلان

وزارة الأوقاف بصفتها ناظرة على الأوقاف الخيرية والأهلية المنظرة عليها والوكيلة عن نظارها والحارسة عليها والحرمين الشريفين تشهر في المناقصة العامة عملية توريد ٣٨٠٠ طن فحومات منها ٣٥٠٠ طن قوالب و ١١٠ أطنان نيوكاستل و ١٤٠ كارديف و ٥٠ طن كوك تحت الزيادة والعجز المطلقين حسب الشروط الموجودة بقسم الري والميكانيكا وتقبل العطاءات لغاية ظهر يوم ٤ فبراير سنة ١٩٣٦ داخل مظاريف تقدم باسم معالي الوزير (قسم الادارة) وكل عطاء لا يكون مصحوبا بتأمين ٥ في المائة من قيمته لا يلتفت اليه والوزارة حرة في قبول أو رفض أي عطاء بغير بيان الأسباب على أن يكون مقدم العطاء مرتبطا بعطائه لمدة شهر من ٤ فبراير سنة ١٩٣٦

وقد تحدد لنهو هذه العملية مدة ثلاثة أشهر من تاريخ التصريح بالعمل وعند رسو العطاء يكمل التأمين إلى ٢٠ في المائة

ولمقدمي العطاءات الحق في حضور جلسة فتح المظاريف يوم ٥ فبراير سنة ١٩٣٦ من الساعة الحادية عشرة صباحا بسراي الوزارة

قسم البلديات ـ قلم التنظيم

تقبل العطاءات لقسم البلديات بوزارة الداخلية حتى ظهر يوم ١٣ فبراير سنة ١٩٣٦ عن توريد وتركيب أسوار من الحديد حول متنزهات مجلس محلي بني مزار ؛ وتطلب الشروط والمواصفات من قسم البلديات مقابل ٢٥٠ مليما ؛ وتقدم العطاءات داخل مظاريف مختومة بالجمع الأحمر ومصحوبة بتأمين ابتدائي قدره ٢ ٪ من قيمتها . وكل عطاء يرسل بطريق البريد ويصل متأخراً لا يلتفت اليه